## لقاء الغرباء

**بسمة النسور**

حين شاهدَته في المقهى الهادئ بعد غياب 20 سنة على أقل تقدير، هرعتْ إليه وسط صدمته، صافحتْه بحرارة وسلّمتْ على الشابة التي تجلس في جواره. أبدى سعادته بالمصادفة الجميلة، انخرطا في حديث خفيف وأسئلة لا تخلو من مجاملة عن الصحّة والحال، ثمّ استأذنتْ وعادتْ إلى طاولتها مع الصديقات من نادي الكتاب، حيث يجتمعن كلّ شهر لمناقشة كتاب من اختيار إحداهن.

تذكّرت المرأة على الفور أغنية «الأطلال» لأمّ كلثوم (كلمات إبراهيم ناجي)، تحديداً المقطع الأخير منها: «ربّما تجمعنا أقدارنا ذات/ يوم بعدما عزّ اللقاء/ فإذا أنكر خلٌّ خلَّه/ وتلاقينا لقاء الغرباء/ ومضى كلّ إلى غايته/ لا تقل شئنا/ فإنّ الحظّ شاء». حاولتْ في البدء تناسي وجوده، وانهمكت في الحديث مع صديقاتها، سألتَهن من دون مناسبة قائلة، بلهجة جادَّة: «هل تعرفن أنّ أمّ كلثوم غيّرت كلمة في قصيدة إبراهيم ناجي؟ وطبعاً وافقها الشاعر الكبير من دون نقاش، فهي الستّ والكوكب الذي يهاب الجميع بريقه». لم تستغرب الصديقات عبارتها لأنّهن اعتدن غرابة أطوارها، وسرعان ما خضن في حديث عن إرث أمّ كلثوم، الذي لا يفهمه هذا الجيل المأخوذ بالأغاني التافهة ذات الإيقاع السريع والكلمات الرقيعة.

تنفَّست الصعداء، إذ لم تلحظ أيّ منهن اضطرابها وتسارع ضربات قلبها وهي على بعد عدّة خطواتٍ من حُبّها الأوّل، الذي ضاع منها لأسباب لم تعد تذكرها. لعلّها تتذكَّر بعضها، غير أنّها تفضلّ عدم الخوض فيها. حانت منها التفاتة إلى المرأة الجالسة في قربه، بدت شابَّة صغيرة السنّ باهرة الجمال. وجه جميل، ملامح دقيقة، وشعر مفرود يغطّي كتفيها، وضحكة ساحرة أشعلت نار الغيرة في قلبها. استرقت نظرة إليه. كانت مظاهر الشيخوخة قد غزت ملامحه، فظهر الشيب على فودَيه، وغزت التجاعيد وجهه، لكنّه ما زال وسيماً. كان يهمس لرفيقته ويضحكان ما أثار غيظها، وأفقدها التركيز ومتابعة النقاش بين الصديقات، الذي احتدم حول الكتاب الذي لم يرق لها، وكانت قد حضَّرت كثيراً لتقوله، لكنّها التزمت الصمت وتظاهرت بالإصغاء، رغم أنّ كلّ حواسّها كانت متَّجهة إلى الطاولة المقابلة، حيث حبيب الصبا الذي ضاع.

أخرجت خلسة مرآة صغيرة من حقيبتها، تأمَّلت في وجهها الخمسيني المُتعَب، ولاحظت أنّ بعض خصلات شعرها ليست مصبوغة. ندمت لأنّها لم تعتنِ بنفسها أكثر، فكَّرت بأنّه سوف يحمد الله أنّهما افترقا قبل أن تنال منها الكهولة، وتحيلها من صبيّة فاتنة مفعمة بالحياة، شديدة الغيرة على الحبيب إلى درجة التملّك، إلى عجوز مثيرة للشفقة. اعترفت لنفسها بأنّها تتحمّل مسؤولية فشل العلاقة بسبب عصبيتها وتسلّطها وتدخّلها في تفاصيله كافّة، ما جعله يشعر بالاختناق والرغبة في الهرب، رغم الحُبّ الكبير الذي جمع بينهما ذات صبا حين توقّع الجميع أن تتوَّج قصَّتهما بالزواج، غير أنّ ذلك لم يحدث، وافترقا نهائياً، ليأتيها بعد أشهر نبأ زواجه، وسفره مع زوجته إلى الخليج. توقَّفت عن متابعة أخباره، ولم يخطر لها، من باب الفضول، مُستجدَّات حياته، لأن ذلك مؤلم. عزفت عن الزواج واختارت أن تظلّ عزباء ما لم يطرق الحُبُّ قلبها من جديد.

تساءلت بغضب كم كان عمر امرأته حين تزوَّجا؟... تبدو صغيرة السنّ. لعلّها مثل المطربة أصالة خضعت لكثير من عمليات التجميل كي تبدو شابَّة فتية. تنبَّهتْ إلى أنّه نادى النادل وسدّد الحساب، وقبل أن يخرج توجّه نحوها بصحبة المرأة الجميلة. نهضت وهي تحاول أن تداري اضطرابها. قال مبتسماً: «نسيت أن أعرّفك إلى ابنتي. إنّها في سنتها الجامعية الأولى، وهي تشبه المرحومة والدتها».

## قيام عنقاء فلسطين وملثّمها

**خالد الحروب**

إنّها بداية الحكاية لا النهاية. تُكتب ملاحم الشعوب، وتُخلُد وتُخلّد، عندما تختلط البدايات بالنهايات. ما يتبدّى نهاية لأيّ منها يكون بداية لتاليها. تصير نقطة الفناء ذاتها تجسّداً صوفياً وانبعاثاً في الحياة طولاً وعرضاً. تُرافق الملحمة الناسَ ويهتدون بها، تصير ابنتهم الحبيبة. تتجذّر وجوه أبطالها في حيوات الأفراد واجتماعهم وتاريخهم ومقبل أيامهم، فيحيا هؤلاء مع من يحيا من أولئك. أسطورة البطل وحدها من تتحدّى محاولاتِ الموت شطب أسماء البشر من الوجود. قليلون هم المُتعالون فوق الشطب اللحظي، رافضين مدحلة الموت اليومي حيث كانت حياة. يموت الناس ويذهبون إلى الفناء، يقوم الفرسان منهم لحظة موتهم ويتوشّحون وسام البقاء. اليوم يوم قيام الفارس المُلثّم. كم صار ممشوق القامة وطويلها. كيف صار طويلاً إلى هذا الحدّ يلاحقه الناس بنظراتهم إذ تغوص كتفاه في سقف السماء!

اليوم ولدت أسطورة، ومن هنا نبدأ. كم من الأجيال القادمة ستقرأ في سماوات البلاد تفاصيل الحكاية. ما كان لتراجيديا قيام عنقاء فلسطين إلّا أن يكون لها بداية تليق بالأساطير، تستدعي كنعان ومعه تمرّ على الجبال كلّها، وتحضن الزيتون كلّه. أكتوبر صناعتك العبقرية هو أكتوبر حضنك النهائي، كأنما أعطاك عمراً فسيحاً مديداً طوله عام كامل من الرصاص. في كلّ ثانية منه كان هناك إكسيرُ سحرٍ غريبٍ من العناد، والعرق، والدم، والدمع، يتكوّن في قلب الأرض التي عشقتَها وعشقَتْك. كم هي المساحات التي قطعتها فوق الأرض وتحتها في ذاك العام الخرافي! كم هم الشهداء الذين عانقتهم وتعشق جسدك رائحة دمهم! كم هي أخبار الثكالى التي أوجعت قلبك، فحبست دمعك؟ اليوم تتعشّق فلسطين، وملايين ناسها ومن سيأتون غداً وبعد غد، دمَكَ وروحَكَ وغضبَك.

يوم صعدتْ ولُدت أسطورة في امتداد سماء فلسطين، يحتلّها وجهك الصارم، ساعدك المُغبرّ، وتروح فيها وتجيء روحك العنيدة. 22 عاماً في سجونهم يحاولون كسر الروح. هزمْتَهم في سجنهم، وخارج سجنهم. في الخارج، كانت ثمّة 13 سنة فقط استكملت مسيرة العناد. كم منّا يجلس على قارعة الروتين أطول من ذلك بكثير! لا أثر. صعدت نجماً، أيقونة تظلّ تبرق في أرواح أجيال قادمة. يوم ظنّ العدو أنّ النهاية جاءت، وصلت معها بدايات كثيرة. هكذا تقول الحياة، وهكذا يقول من يريدها بهامة عالية. وهكذا ردَّد أولاد المدارس حكاية عنقاء الأرض التي لا تموت.

في كلّ أسطورة فروسية، يخبرنا التاريخ، هناك أنذال على الهامش يُفرحهم سقوط الفارس. فروسيته تُخجلهم، شجاعته تُعرّيهم، تفضح خنوعهم، وتذيبهم في مستنقع قميء حفرته حكايات البشر منذ بدء الخليقة. لما يلتفتون حولهم ليشاركوا فرحهم الغادر مع غيرهم لا يجدون سوى عدوّهم يدقّ الطبول، عدوّ الفارس ذاته. يرتبكون لوهلة، ثمّ يكابرون، يصفّقون للقاتل فيما حذاؤه يسدّ أفواههم. يُعلون أصواتهم آملين أن يُخفي عويلُ صراخهم عمقَ النذالة، لكنّهم يغرقون أكثر. في كلّ قصة فروسية كوضوح الشمس هناك غدر كوضوح الخنجر في الظهر. ثمّة في الوسط جبناء يتردَّدون، ينتظرون نهاية المعركة كي يُحدّدوا موقعَ أقدامهم. قال أحدهم، الجبن ليس عيباً، لكنّه الجريمة.

الفارسُ الصاعدُ تواصل ساعداه وكتفاه الغوص في سقف السماء. يتابعه الناس، شجعانهم، أنذالهم، جبناؤهم. ترجع رقاب الناظرين إلى الخلف يلاحقون فوران الريح حول رأس الملثّم وساعديه الداميتين الصلبتين. يتساءل بعضهم: ماذا يفعل صاعداً في سقف السماء؟... يجيب عارفوهم: إنّه يرفع السقف من أجلنا وعلينا. أسقفُ فلسطين ظلّت ترتفع واحداً إثر الآخر من الجليل وثلاثية عكا الحمراء، إلى حيفا ويعبد وقسّامها، وقوفاً في كلّ مدينة وقرية ومُخيّم. خارج حدود الأرض ظلّت الأسقف تُصنع وتُرفع، في بيروت كنفاني وعدوان، في تونس أوّل الرصاص وأوّل الانتفاضة، ثمّ عودة إلى حيث رُفِعت السقف الأولى، وقافلة لم تنته بأبي عمّارها. اليوم وعلى طول درب الدم المزنّر بين مخيَّمَي خانيونس وتلّ السلطان يرتفع سقف الأسقف، عالياً كما لم يَعلُ من قبل. سقف سماء جديدة تُتعِب القادمين الجُدد. هذا ولد المخيّمات، ابن الأرض يصول في شمالها وجنوبها، يحرثها بالحُبّ والوعد، سليل المُغبرين من المجدل. يُقسِم بالتين والزيتون قسمَ أجيال من قبله ومن بعده أنّ نهاية الدرب المُعبّد بالعناد واضحة كالشمس، يتكئ اليوم على حافة سقف السماء، مُلثّماً، ناظراً، ناشراً ساعديه جسراً لأجيال قادمة معبأة بالصهيل.

(أكاديمي فلسطيني في الدوحة)

## العوائد السياسية لاستراتيجية صمت الأسد

**سميرة المسالمة**

لم تمنع الاختلافات العميقة للدوافع والمصالح التي تحكم الأطراف السورية المتصارعة، وتنتمي إلى النظام السوري، أو إلى خصومه من معارضين ومحسوبين على قوى دولية وإقليمية، من إيجاد تقاطعات غريبةٍ في مصالح الطرفَين تحاول دفع الرئيس بشّار الأسد نحو حرب مع إسرائيل، إلى جانب حلفائه من حزب الله وحركة حماس وإيران، في غزّة ولبنان، وعلى الحدود السورية حالياً، فأنصار ما يسمَّى محور المقاومة داخل النظام، والمرتبطين بأجندة المليشيات التي ساعدتهم في كبح الثورة السورية، يرون أنّ الانخراط في الحرب يُعزّز شرعيته، ويجعل منه ركناً رئيساً في تحالف «وحدة الساحات»، الذي يربط بين مسارح الحرب، من غزّة ولبنان إلى سورية وإيران. هذا المسار يُقدَّم دفاعاً عن القضية الفلسطينية، وهو ما يُعطي النظامَ فرصةً لاستعادة شعبيته المفقودة أمام جمهوره، خاصّةً بعد سنوات من الحرب ضدّ معارضيه، التي هزَّت النظام على المستويات الداخلية والإقليمية. وفي هذا السياق، يرى «محور المقاومة» أنّ مواجهة إسرائيل جزء من الحفاظ على الهُويَّة القومية، والدور التاريخي لسورية حاميةً للقضية الفلسطينية، وأنّها تعزّز التحالفَ مع إيران وحزب الله، وهما داعمان رئيسان للنظام، وهذا الدور يتيح للأسد الحفاظ على مكانته الإقليمية في مواجهة خصومه العرب، الذين يعتبرون التحالف مع إيران تهديداً مباشراً لنفوذهم. في المقابل، بعض المعارضة السورية، أو بعض الفصائل المسلّحة التابعة لجهات إقليمية مستفيدة من زعزعة العلاقة بين النظام وداعميه، أو صنّاع الرأي «الفيسبوكي»، تستخدم هذه الدعوات لدخول الحرب بطريقة مزدوجة، فهي لا تسعى إلى اختبار قدرة الجيش السوري فعلياً، بل توظّف ذلك لإحراج النظام، وكشف تواطؤ الأسد المزعوم مع إسرائيل. فبعض المعارضين يدّعون أنّ النظام الذي دمّر سورية وقتل الآلاف من أبنائها، قد يتواطأ مع العدو الخارجي الذي لطالما قدّم نفسه عدوّاً تقليدياً لسورية. ومن جهته، سخّر النظام إمكانات سورية فيما كان يدّعي أنّه لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع هذا العدو. من خلال هذه الاستراتيجية، يهدف المعارضون إلى تعرية النظام من خلال التركيز على صمته تجاه الانتهاكات الإسرائيلية المتزايدة في الحدود السورية، ممّا يضعه في موقف محرج أمام مؤيّديه. فإذا لم يدخل الحرب، فسيظهر كمن خذل المقاومة وأخلّ بتحالفه مع إيران وحزب الله. أمّا إذا دخل الحرب، فإنّ النظام سيكون معرّضاً لمواجهة عسكرية غير متكافئة مع إسرائيل وحلفائها الغربيين، وهو ما قد يُؤدّي إلى تدمير ما تبقّى من قدراته العسكرية والاقتصادية، ويُعزّز من عزله إقليمياً ودولياً.

ليست هذه الدعوات بعيدةً عن فهم النظام السوري لأهدافها، وهو حتماً لا ينجرّ إليها، ليس لأنّه يدرك أنّها ليست لتحقيق نصر عسكري على عدو مشترك لكل الجهات الداعية له، بما فيهم الأطراف المحسوبة على المعارضة، ولكن لأنّه جزء من لعبةٍ سياسيةٍ متعدّدة الأبعاد، والأطراف الداخلة فيها. فإيران صاحبة المصلحة العليا في تجنيد حلفائها كلّهم في هذه المعركة التي تخوضها من بعد، لم تضعه أمام خيار الحرب المباشرة مع إسرائيل، لمعرفتها المسبقة بواقع الجيش السوري المُنهَك من حربه الداخلية من جهة، ولأنّ الخصم هذه المرّة ليس شعباً أعزلَ كما كان الحال مع السوريين، فهذه حربٌ ضدّ الجيش الإسرائيلي المدعوم من قوىً كُبرى، والتي تتجنّب إيران نفسها الدخول في معركة مباشرة معه، وفي الوقت ذاته لأنّ خسارة الأسد، إلى جانب خسارات ذراعها في جبهتها المتقدّمة (حزب الله)، والانكسارات المتلاحقة لحركة المقاومة الفلسطينية في غزّة، يجعلها حريصةً على بقاء حليفها السوري، والحفاظ على نفوذها الاستراتيجي في سورية، والمنطقة عامةً. فدعم إيران للأسد ليس لشخصه، بل لدوره، ويرتبط بمصالحها الجيوسياسية والاقتصادية والدينية في المنطقة، خاصّةً في ظلّ الصراع الإقليمي مع قوى مثل الولايات المتّحدة، وإسرائيل، والسعودية، ورغبتها في عدم إدخال هذه الأطراف الساحة السورية.

> ستكون حرب النظام مع إسرائيل على حساب السوريين، من دون تحقيقهم مكاسبَ ملموسةٍ في جبهة النظام أو في جبهة المعارضة

ولعلّ ما يقوم به اليوم جيش النظام من حرب ضدّ مناطق إدلب، بالتعاون مع حليفه الروسي، هو جزء من تفاهم بين الحليفين الروسي والإيراني، من جهة لإشغال الأسد بمتابعة حروبه الداخلية، ومن جهة مقابلة، لإبعاد خطر الفصائل من مليشيات إيران، حتّى لا تكون هذه المليشيات بين كمّاشتين. لكنّ ذلك كلّه لا يعني أنّ الجبهات فعلياً أخذت مواضعها، فكلّ تفصيل صغير في الأرض يغيّر المعادلات، وهو يعكس الطبيعةَ المعقَّدة للصراع السوري، إذ قد لا تلتقي المصالح الداخلية والخارجية لتحقيق التوازنات الحساسة، أو التسويات المأمولة من كلّ الأطراف، إلّا أنّ الدخول في حرب مع إسرائيل لن يكون في مصلحة السوريين بأيّ حال، سواء أكانوا من أنصار النظام أم من معارضيه، فالنتيجة ستكون المزيد من الدمار والاستنزاف الذي خلَّفته حرب 13 عاماً، وأدّت إلى هذا التصدّع العميق، ليس في البنية التحتية وفي الوضع المعيشي للسوريين، بل في أولوياتهم وإجماعاتهم الوطنية، ما يعني أنّ الحرب ستكون على حساب السوريين ومن أرواحهم، ومن دون أيّ أمل في تحقيق مكاسبَ ملموسةٍ لهم، سواء كانوا في جبهة النظام، أم في جبهة المعارضة.

(كاتبة سورية)

**كاريكاتير** **عماد حجاج**



## اتفاق فلسطيني مرحلي

**عاطف أبو سيف**

تتواصل الجهود لإنهاء الانقسام الفلسطيني منذ أكثر من 17 سنة، من دون أن تحقق نتيجةً كبرى أو اختراقاً. وربّما باستثناء التوافق بين التنظيمَين الفلسطينيَّين الكبيرَين، حركتي حماس وفتح، على «حكومة وفاق وطني» وهي حكومة رامي الحمد لله الأولى، فإنّ تقدماً مهمّاً لم يحدث في الملفّ الفلسطيني الداخلي. ورغم ذلك، لم تقد حكومة الوفاق إلى وفاق حقيقي، إذ سرعان ما عاد الانقسام إلى عاداته القديمة بعد محاولة تفجير مركب قيادة السلطة خلال زيارتها غزّة، وتعثّرت حكومة الوفاق، ولم تعد حركة حماس تتعامل معها بوصفها حكومةً، ولم تعمل على «تمكينها» في القطاع مدخلاً لدمج مؤسّسات السلطة وأجهزتها في الضفّة الغربية وقطاع غزّة. كان السعي إلى إنجاز اتّفاق تكاملي هدف كلّ جولة حوار جديدة. ومن القاهرة إلى إسطنبول، ومن الدوحة إلى موسكو، ومن بيروت إلى بكّين، لم يحدث شيء حقيقي يطوي الصفحة السوداء في تاريخ العلاقات الوطنية. وفيما يمكن بسهولة تبادل الاتهامات، كما يمكن تبيان جهة التقصير في مرّاتٍ كثيرة، كما يمكن رمي اللوم على جهات خارجية، فالحقيقة أنّ هذا كلّه لا يفيد في التخفيف من واقع الانقسام المرير في الحياة الفلسطينية الداخلية، فالمواطن هو من يدفع فاتورة الانقسام الباهظة، وهو من عليه أن يتحمّل تبعات ما يجري كلّه في الأرض، حتّى حين يكون جرحه نازفاً، وتكون حياته مهدَّدةً، ويتعرّض لحرب إبادةٍ هي الأبشع منذ عقود، فإنّ عليه أن يكون عند حسن ظنّ الانقسام ويقبل به.

ما زلت أذكر تلك الأجواء التي سبقت أوّل جلسة حوار وطني بعد الانقسام، دعت إليها مصرُ بعيد الحرب على غزّة، في ديسمبر/ كانون الأول من العام 2008، وانتهت في يناير/ كانون الثاني من 2009، واستمرّت 22 يوماً. كان ثمّة فرحة وبشرى تسري في النفوس، خاصّةً بعد أسابيع الحرب المؤلمة التي ارتقى فيها أكثر من ألف شهيد، وأصيب أكثر من أربعة آلاف مواطن. كان ممثّلو بعض الفصائل يجلسون في فندق الديرة في شاطئ مدينة غزّة، كان ثمّة أمل. انتابني إحساس للحظة خلال وجودي في المكان بأنّنا سنخسر كثيراً لو فشلت جولة الحوار. وذهب المفاوضون ولم يأتوا لنا بالمصالحة. حدث بعض التقدّم في بعض القضايا التي مسَّت مستقبل النسيج الاجتماعي مثل تشكيل لجان للمصالحة المجتمعية، وغير ذلك، لكنّ تقدماً حقيقياً لم يحدث. وتواصلت اللقاءات، وانتقلت من عاصمة إلى أخرى وفق الدعوة الموجّهة إلى الفصائل، ولم يحدُث شيء. وفي كلّ مرّة كانت تطير فيها الوفود إلى «عواصم الحوار الفلسطيني»، كان الأمل يتجدّد بأنّنا قد نتحدّث عن الانقسام بلغة الحاضر، وهو ما بات يسبّب خيبات كبيرة للمواطنين عقب فشل كلّ جولة حوار، حتّى انعدم يقينهم بإمكانية تحقيق «المصالحة»، وإنجاز «الوحدة الوطنية». وحين يغيب الأمل وينعدم اليقين بالغد، وتتضاءل الحماسة في انتظار القادم، يعزل المواطن صاحب المصلحة الأكبر بإنهاء الانقسام نفسه عن السياق العام لإنجازه. وهذا ما جرى، حين لم تعد بعض الجولات تلقى أيّ اهتمام من المواطن. وبيقيني، لم نتعلّم من دروس الفشل والتعثّر، ولم نُجرِ أيَّ مراجعات حقيقية حول سبب عدم إنجاز أيّ تقدّم. ويسهل مرّة أخرى ذكر بعض الأسباب التي لا علاقة لها (مرّة أخرى وفق يقيني) بحقيقة المصلحة الوطنية، لأنّ هذه المصلحة تتطلّب المصالحة، وليس أيَّ شيء آخر، ولأنّ المصلحة الوطنية تعني وضع الاعتبارات كلّها جانباً، والتوقف عن التراشق والاتهام من أجل إنجاز المهمة التي صارت في عيون الناس مستحيلةً لكثرة ما نُوقِشت، وكان لسان حال الناس في غزّة يقول إنّنا «ننفخ في قربة مثقوبة»، أيْ لا فائدةَ تُرجى من الجهود المبذولة كلّها. ببساطة لم ننظر في الأسباب الحقيقية كلّها وراء فشل جولات المصالحة.

إذا كانت حرب مدمّرة وإبادة شاملة مستمرّة أكثر من عام، ارتقى فيها 42 ألف شهيد وقرابة مائة ألف جريح، إضافة إلى أكثر من 20 ألف مفقود هم شهداء، وآلاف الأسرى، وتدمير شامل لقطاع غزّة كلّه، حتّى لا يكاد يوجد بيت يصلح للسكن، إلى جانب تدمير أكثر من 500 مدرسة و19 جامعة وكلّية، وإزالة المؤسّسات العامّة والأهلية والخاصّة... إذا كان ذلك كلّه لن يغير في مواقفنا شيئاً، ولن يجعلنا نعيد التفكير في طريقة تفكيرنا، فإنّنا ببساطة نخون الناس الذين ينتظرون الموت. الآن المواطنون في شمال غزّة لا ينتظرون شيئاً، ينتظرون الموت فقط، ويعرفون ألّا شيء إلا إرادة الخالق ستنجيهم من قبضته. إذا كان ذلك كلّه لن يحرّكنا، ولن يجعلنا نفكّر عميقاً في مدى صلاحية ما كنّا نفكّر فيه، حتّى لو كان صواباً، فإنّنا نجازف بأن نرى شعبنا يُباد، وننتظر حتّى تتحقّق معجزة أفكارنا ومواقفنا التي لا نحيد عنها. ليس من الصواب أن تكون حكيماً دائماً، كما ليس من الحكمة أن تكون على صواب. أظنّ أنّنا في زمن نحتاج فيه إلى الحكمة لا الصواب. فالصواب هو ما نعتقده، وهذا حقّ كلّ تنظيم سياسي. ولكنّ الحكمة هي ما تقتضيه المصلحة الوطنية العُليا، التي لا يمكن أن تكون وفق رؤية حزبية، بل تتّفق مع حاجات الناس. لا وطنَ بلا شعبٍ، ولا مصالحة.

يغيب عن النقاش بشأن مستقبل الوحدة الوطنية حاجةُ الناس الأساسية المتمثّلة في وجود إدارة سليمة لحياتهم، تكفل العدالةَ في توزيع المعونات والمساعدات، وتخفّف عنهم أعباء الحرب الدائرة، وتنظر في إدارة حياتهم بعد انتهاء الحرب. تذكّروا أيضاً أنّ ثمّة حرباً بعد الحرب، حرب بناء غزّة وعودة الحياة وإعمار ما خرّبه الاحتلال. وهذه مهمّة شاقّة. الناس في حاجة إلى أن يشعروا على الأقلّ بأنّ حياتهم، رغم الجراح كلّها، هناك من يُفكّر فيها.

تتذكّرون حين أحدث الاتحاد الأوروبي التقاربَ وإزالةَ الحواجز ودمجَ السياسات بين الدول الأعضاء، بعد «الفعل الأوروبي الموحّد» في 1986، وبعد ذلك اتفاقات ماسترخت في 1992. على فكرة، «الانزياح التدريجي» يقوم على أنّ تطبيق سياسة في مجال يعني ضرورة إحداث تغير في سياسة أخرى، وعليه فإنّ الاتفاقات الأوروبية المختلفة شكّلت مرحلياً عمليةً تراكميةً قادت إلى إزالة الحواجز بين دول أوروبا المتناحرة خلال حربَين كونيتَين في النصف الأول من القرن الماضي. ما أقترحه، أنّ ثمّة ما يمكن تحقيقه في أسوأ الظروف، وثمّة ما هو ضروري وممكن، وما يمكن تأجيله، وثمّة ما هو سهل وبسيط يخدم في تخفيف آلام المرحلة فقط، لكنّه في المدى البعيد سيسهم في التخفيف من أزمات الانقسام الكُبرى. ما أقترحه هو وجود نماذجَ لحلّ الصراع الداخلي ترتكز على مصالح الناس الآنية في طريق تحويل هذه النماذج إلى منطلقاتٍ لحلّ الصراع الداخلي برمّته. أيْ إنّ هناك ما يمكن إنجازه بسرعة، ويكون تأثيره كبيراً الآن ولاحقاً. والأساس ألّا يرهن ذلك كلّه بمستقبل السؤال الكبير حول إنهاء الانقسام بالكامل.

> ينبغي توفير نماذجَ لحلّ الصراع الفلسطيني الداخلي ترتكز على مصالح الناس الآنية، في طريق تحويل هذه النماذج إلى منطلقاتٍ لحلّ الصراع برمّته

يبدو هذا الكلام مهمّاً ونحن نُفكّر في المستقبل الفلسطيني عامةً، وفي مجريات جلسة الحوار في القاهرة التي التأمت الأربعاء الماضي. الحوار الوطني برمّته، وفي مراحله كلّها كان ينظر إلى حلّ الخلاف بين التنظيمَين الكبيرَين، ولم ينظر إلى حلّ مشكلات الناس. صحيح أنّ معظم مشكلات الناس في غزّة مردُّها الانقسام وارتداداته، وهذا صحيح مائة في المائة، لكن أيضاً لا يمكن للناس أن تقتنع أنّ مصلحتها لن تتحقّق إلّا بعد أن يتّفق الطرفان، إذ إنّ المنطق أنّ ثمّة مصالح وحاجيات للناس يمكن تلبيتها من دون حلّ المشكلات كلّها. التفكير فيما يحتاج إليه الناس يجب أن يكون أولويةً في البحث عن إحداث تغير جذري في الواقع الفلسطيني، وفي العلاقات الفلسطينية الفلسطينية.

صحيح أنّنا في حاجة إلى إنهاء الانقسام نهائياً، وفي حاجة إلى حكومة مركزية، وفي حاجة إلى وجود «الكلّ» الفلسطيني داخل منظّمة التحرير من أجل تمكين التمثيل الفلسطيني وتقوية مطالبنا السياسية وإنهاء حالة الشرذمة في الموقف السياسي، ولكنّنا أيضاً في حاجة إلى أن نفكر في كيف يأكل الناس في الحرب، وكيف ينامون ويشربون، وأيضاً في كيف يتحرّكون ويعيشون الحرب الأخرى بعد نهاية الحرب.

نحن في حاجة إلى اتفاق وطني مرحلي مؤقّت وسريع، يلامس حياة الناس، خاصّة حول المساعدات، ومعالجة حياتهم في حال وضعتِ الحربُ أوزارها، أو في حال استمرّت.

(روائي ووزير فلسطيني سابق)

## هل حروب العرب وإسرائيل تاريخ انقضى؟

**المهدي مبروك**

منذ حرب أكتوبر (1973)، التي خاضها العرب «مجمّعين» حرباً أخيرة مع إسرائيل، سكتت جُلّ الجبهات، ولم يعد من معنىً للحديث عن حروب العرب مع إسرائيل إلّا من باب التجوّز والاستعارة. لم يحارب العرب إسرائيل منذ تلك الحرب، بل لم يعودوا راغبين في الحرب مطلقاً، ثمّ ما لبثوا أن تحوّلوا منزعجين ممّن يخوض منهم الحرب ضدّ إسرائيل، ناقمين عليه، طوراً باسم الواقعية، وطوراً آخر باسم الصلح والسلام. مع ذلك ظللنا عاطفياً مساهمين عرباً فيما نشب من حروب خاضها بعض العرب ضدّ إسرائيل، فخاضت المقاومة اللبنانية حروبها في تساوق طوْراً، و تقاطع طوْراً آخر، مع الحروب والاشتباكات التي خاضتها المقاومة الفلسطينية مع الكيان.

كان الشارع العربي خلال تلك العقود الثلاثة قد عبّر عن تعاطفه مع أشقائه في تلك الحرب التي خاضوها. ماج الشارع العربي مع حرب تمّوز (2006)، ومختلف الانتفاضات الفلسطينية، والعمليات التي قادتها الفصائل الفلسطينية المسلّحة، سواء حركة حماس أو حركة الجهاد الإسلامي. عكست موجة التعاطف والغضب التي عبّر عنها الشارع العربي درجة الخيبة والإحباط التي عاشتها الشعوب العربية، وهي ترى أنظمتها «محيَّدةً»، وكأنّ ما يجري لا يعنيها. في موجات التعاطف تلك، كانت جامعة الدول العربية خصوصاً، والنظام العربي الرسمي، محلّ سخريةٍ وتندّر وغضب. حُمِلت على الاكتاف نعوشُ الجامعة، وهذا النظام الذي نظر إليه بعضهم شاهدَ زور، أو في أفضل الحالات مساوماً وخانعاً. لهذه الموجات الهادرة من التعاطف تأثير نفسي كبير في المحاربين؛ حركات مقاومة، وجماعات الإسناد من المرابطين والعوائل، ومنتديات التعاطف الإنساني العالمي. يشعر المقاتلون أنّهم يخوضون حرباً نيابة عن الأمّة المخذولة، وهم يرون في الشاشات تلك الموجات البشرية التي تسندهم. يكفيهم أن تنتهي إلى مسامعهم الهتافات والأهازيج التي تُجلّهم.

غير أن الأيام دفعتنا تدريجياً إلى التدحرج إلى منزلة مؤلمة لم نكن نتوقَّعها مطلقاً. لا أدري متى بدأت المنعطفات الحاسمة للخيبة الكُبرى. هل بدأت مع سقوط جدار برلين واستفراد الولايات المتّحدة في قيادة العالم بتعجرف؟ أم بُعيد حرب الخليج الأولى أو الثانية؟ أم بعد أحداث 11 سبتمبر (2001)؟ أم هي مسارات التدحرج والتقهقر تلك تراكمت حتّى أوصلتنا إلى ما نحن فيه؟ ... ها قد انتهينا مشاهدين لفرجة كبيرة تتواصل مدّةً تجاوزت السنة. تسمّرنا أشهراً عديدةً أمام الشاشات نشاهد مشاهد الدمار التي عجز الإعلام عن نقلها أثناء الحروب المعاصرة الكُبرى؛ الحرب العالمية الثانية، وحرب التحرير الجزائرية، وحرب فيتنام... إلخ. المشهد الإعلامي المفتوح على تفاصيل القتل المرعب، وبالألوان، و«تحت المجهر» و«المباشر» و«العاجل» و«على الهواء مباشرة»، تُلقَى في الساعة الواحدة أطنانُ المعلومات والصور والتصريحات. شكَّلت حروب العرب خلال العقود الأخيرة مخبراً غيرَ مسبوقٍ لتشكيل مناهجَ نقلٍ وبرامجَ، ولاختبارٍ تقنيات تصوير، ولابتكار أشكال تغطية إعلامية جديدة بدأت تُدرج في مناهج كلّيات الإعلام. لقد انتهينا إلى منزلة فيها النَّهم المَرَضي إلى حدّ إدمان الخبر ومتابعته، وقد يسحب منّا هذا المشاعر الحيّة الممكنة كلّها. الإفراط في الخبر ومتابعته المَرَضية ينزعان منّا ردَّات الفعل الممكنة، وهذه إحدى رهانات الإعلام الراهن؛ سحب المشاعر وتبليدها في مقابل وفرة المادّة الخبرية وإغراق الناس بها. يتسابق الناس (والقنوات طبعاً) لتكون لهم أسبقية الاستماع إلى الخبر أو مشاهدته ونقله، فضلاً عن التفرّد الحصري ببثّ الصورة أو التصريحات. إنّها ملهاة المآسي الراهنة. لا تفعل القنوات ذلك عمداً، ولكنّها تنتهي (وإن عن حسن نيّة) إلى تلك النتيجة. في المحصّلة، لم تعد الحرب تعني العرب حتّى شعوبهم. لا فائدة في نقل ما يطفو في شبكات التواصل الاجتماعي بهذا البلد أو ذاك من إبداء بعضهم الضيق بالمقاومة، والتبرّؤ منها (فتاوى ومواعظ وحِكَم ودروس...)، واعتبارها تقاتل باسمها فقط، وليس نيابةً عنّا. قد يكون هذا الرأي نادراً ومعزولاً ولا يمثّل رأياً عامّاً واسعاً، لكنّه مُؤشّر إلى حالة التدحرج التي وصلنا إليها نحن العرب. لم يعد الأمر مُجرَّد موقف من الحرب، فلقد انقسم العرب سابقاً حول من يحقّ له إعلان الحرب؟ كيف نشارك فيها؟ من له سلطة إيقافها؟... إلخ، بل إنّ الانقسام طاول الموقف من العدو ذاته وقد غدا لبعضهم صديقاً ولبعض آخر حليفاً.

> يشعر المقاومون أنّهم يخوضون حرباً نيابة عن الأمّة المخذولة

تطالعنا في كثير من الكتب الجيوسياسية المستقبلية أنّ العرب لن يخوضوا حروبهم القادمة مع إسرائيل، بل ستكون حروبهم أهليةً، حروب تنشأ بين أهل البلد الواحد؛ ما يحدث الآن في السودان واليمن وغيرهما، أو بين بلدان عربية. والمُؤشّرات كثيرة، فلننظر إلى الحدود الفاصلة بين هذا البلد أو ذاك وجيرانه، لنعرف جدّيةَ ما يمكن أن يندلع من حروب عربية قادمة وخطورتَها.

(أكاديمي تونسي ووزير سابق)



## مسلسل تلفزيوني عن السنوار المعجب بعرفات

**معن البياري**

تصلُح رواية يحيى السنوار (1962) التي كتبها في السجن الإسرائيلي، «الشوك والقرنفل»، لتتحوّل إلى سيناريو مسلسل درامي شائق، وفي وُسع شركة إنتاج طموحة، وبغرض الربح لا غيره، أن تفعلها، وتُنجز هذا المسلسل التلفزيوني الذي سيضجّ بتفاصيل اجتماعية ومعيشية وسياسية، ليس فقط عن أسرةٍ فلسطينية لاجئة من عسقلان إلى مخيم خانيونس في قطاع غزّة، كان الكاتب من أفرادها، بل أيضاً عن مشهد فلسطيني عريض، يجول في 40 عاماً، يبدأ من مطالع الستينيات إلى ما بُعيْد الانتفاضة الثانية، فثمّة غنىً إنسانيٌّ على كثيرٍ من التنوّع، يُتيحه تعدّد الشخصيات، سيّما بشأن أحداث ووقائع كبرى، من قبيل حربي 1967 و1973 وبينهما معركة الكرامة (1968) وصدامات 1970 في الأردن مع المقاومة الفلسطينية، ثم زيارة أنور السادات القدس ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وتالياً حرب لبنان 1982، وصولاً إلى اتفاق أوسلو وإقامة السلطة الفلسطينية. وذلك من خلال عيون شبابٍ في هذه الأسرة، وأقارب وجيران ومعارف لهم، تحسّس كلٌّ منهم وعيه الخاص بشأن الوضع العام والصراع مع إسرائيل. وعدا أن فضاءات الرواية زمنياً فسيحة، فإنها مكانياً تخرُج من خانيونس إلى عموم قطاع غزّة وإلى الضفة الغربية (الخليل وجامعة بير زيت وغيرهما) والأردن ومصر. وأظنّهم أخطأوا من قرأوا الرواية وعدّوها سيرةً لكاتبها يحيى السنوار، إذ يبدو الرجل راوياً عن نفسه بمقادير أقلّ كثيراً مما روى عن غيره، وخصوصاً عن إخوته، حسن ومحمود ومحمّد، وعن والده، الذي من ذروة الدراما (لمسلسلٍ تلفزيوني) أنه اختفى بعد حرب 1967، ولم تعلم عنه أسرته شيئاً، فيما كان قد غادرٍ إلى مصر، ثم استقرّ في الأردن، وتزوّج من فلسطينية في مخيّم البقعة، وقضى في صداماتٍ الفدائيين مع الجيش هناك، وأنجب ولديْن توأميْن، يظهران شابيْن مع القادمين (العائدين) إلى غزّة بفعل تفاهمات أوسلو في 1993، ومعهما هذا المقطع المثير في الحكاية، والذي لم يكن معلوماً ليحيى وأخويه ووالدتهم التي أزعجها هذا.

تقرأ «الشوك والقرنفل»، وتشعر بشيء من المتعة في متابعة سجالاتٍ لم تنقطع بين محمود الذي درس الجامعة في القاهرة، وشقيقيْه حسن ومحمّد، فهو يناهض «الإخونجية» (بتعبيره)، ومتحمّس لمنظمّة التحرير وشرعيّتها، ويتفهم اتفاقات أوسلو، وكثير الانتقاد للإسلاميين، ويرميهم بما فيهم وما ليس فيهم، ويحبّ جمال عبد الناصر، وكان في «القيادة الموحّدة للانتفاضة» الأولى. وفيما نتعرّف على آراء الشقيقيْن المخالفة، لا نقع على ما يراه شقيق الثلاثة يحيى الذي يبدو سارداً متفرّجاً، يحكي عن الآخرين، وإن يخبرنا في الصفحات الأخيرة باشتراكه في عمليات للمقاومة، وتعرّفه على حركة حماس. ولا تلتقط لهذا الشاب الذي استهواه ميلُ إسلامي حماساً مفرطاً في وجهته هذه، ولا تلقى منه انشغالاً بانتقاد فصائل وتشكيلات فلسطينية أخرى. وهنا، أصاب ياسر عبد ربه لمّا قال لمحاوره غسّان شربل إن السنوار ليس من سلالة الإخوان المسلمين المكوّنين عقائدياً بطريقة يصعب فيها عليهم التعامل البراغماتي والواقعي مع تطورات الأحداث، وجاء إلى «حماس» بوصفها ذات لون إسلامي وحركة مقاومة، بمعنى بعد 1987، عندما بدأت تتكوّن وتشترك في الانتفاضة الأولى.

لافتٌ ذلك الإعجاب الكبير الذي كان يمحضه الشهيد يحيى السنوار للزعيم ياسر عرفات. صحيحٌ أننا لا نصادف في «الشوك والقرنفل» اسم عرفات إلا مرّتين، أولاهما أنه صار، بعد معركة الكرامة، يُستقبل في العواصم العربية بحفاوةٍ خاصة. وثانيهما أن الطالب في المرحلة الثانوية، يحيى السنوار، كان «مثل كل الشباب في المخيّم في تلك الفترة» (بحسبه)، يشعر بشيءٍ كبيرٍ من الاحترام والتقدير لياسر عرفات، وأنه يعتبره قائدَه وزعيمه، ويهتف مع الشبابٍ في التظاهرات حاملين صوره «بالروح والدم نفديك يا أبو عمّار» بكل صدقٍ وجدّية... لكنها مرّات عديدة خارج الرواية، حيّا فيها قائد «حماس» في غزّة ياسرٍ عرفات، فباق في الذاكرة أنه وصف الزعيم الراحل بالقائد الخالد في كلمته أمام حشدٍ في غزَّة، بعيد معركة سيف القدس في 2021، وخاطبه «نم يا قرير العين، بعد أن أصبح لدى مقاومة شعبك مئات الصواريخ يكون فيها بتل أبيب وغوش دان». وكان قد خاطب واحدةً من مسيرات العودة في 2018: «إننا على عهد المقاومة والتحرير نسير على نهج الشهيد ياسر عرفات».

يحيى السنوار شخصيةٌ ملحميةٌ، تتوفّر على كل عناصر الإعجاب والإكبار، متعدّد، محاربٌ جسور... ومحبٌّ للزعيم ياسر عرفات، وكتب روايةً تنتظر من ينجز منها مسلسلاً تلفزيونياً مُتقناً.

## إنهم يبيعون المستقبل

**سامح راشد**

تباشر السلطة الحاكمة في مصر بيع أصولٍ وثرواتٍ منذ بضعة أعوام، وتحديداً منذ اكتمل تمكين تلك السلطة عبر مجالس نيابيةٍ صُنِعت على أعينها تخوّلها فعلَ ما تشاء، ثمّ تبارك ما تفعله بقوانين فُصّلت لها تفصيلاً. ويساندها إعلام رجيف رهين رسالة في هاتف محمول. لكن ما وصلت إليه السلطة أخيراً تجاوز الحدود كلّها، وكسر سقف التوقّعات. إذ قوبِلت تحذيرات الخبراء والمتخصّصين في الاقتصاد والإدارة بتجاهل تامٍّ، بل وبتشويه وباتهام بانتماءات معادية وبامتلاك أجندات... وغير ذلك من تهم جاهزة لإلصاقها بأيّ صوت عقلاني في البلد.

يمرّ عام تلو الآخر، ولا جديدَ يلوح في الأفق، سلسلة متّصلة ومستمرّة من صفقات استجلاب الأموال بأيّ شكل، ومهما كان المقابل. فبعد أن توقّف ضخّ المنح والهبات لاستئصال «الإخوان المسلمين» وتثبيت أركان النظام الجديد القديم، انتهت أيضاً مرحلة الاستدانة بعد أن وصلت أعباءُ خدمة القروض إلى أرقام خرافية، ولم يبقَ من منافذ الاقتراض سوى أقلّ القليل ممّا يتعطّف به صندوق النقد الدولي، في دفعات لا تسدّ احتياجات المصري الفقير، ولا تردّ نهم السلطة الجشعة.

وصل الحال في مصر إلى تأجير مطارات وبيع بنوك والاستيلاء على أراضي طرح النهر في شاطئ نهر النيل العظيم بمحافظة القاهرة (بطول حوالى 30 كيلومتراً) وانتزاعها من هيئات ومؤسّسات حكومية وعامّة، تشمل مقارَّ ومنشآتٍ تابعةً لجامعتَين حكوميتَين (القاهرة وحلوان)، وهيئات قضائية، ومسارح تابعة لوزارة الثقافة، وحدائق ومقارّ شرطية، وغير ذلك من مصالح خاصّة وعامّة. وليس من معنى وصول سجلّ المبيعات إلى هذا المستوى، سوى إفلاس عقلي قبل أن يكون فشلاً اقتصادياً. لا حاجة إلى التذكير بأصوات جوقة جعجاعة كانت يوماً تطنطن بالسيادة والإرادة، وتولول خشيةً على الأمن القومي، فلم تعد تلك الأصوات تهمّهم أو حتّى تحدّث نفسها. لكن يجب الوقوف ولو للحظةٍ للتفكير في الغدّ وإجابة سؤال بسيط منطقي وحتمي؛ وماذا بعد؟ ماذا بعد الانتهاء من بيع كلّ شيء؟

لا أحدَ يطرح، ولو بكلام خيالي، ما بعد البيع. لا مسؤولَ واحداً يملك خطّةً واضحةً لتطوير أو تحسين الوضع في نطاق اختصاصه. لا يتعلّق الحديث هنا بمستقبل الصناعة أو الاقتصاد أو المشروعات الكُبرى التي تستهلك أموالاً ولن تدرّ عائداً، ولا عن المصانع التي أُغلِقت والعراقيل الضخمة التي يواجهها أيُّ مستثمرٍ يُفكّر في ضخ استثمار أو تأسيس كيان صناعي فقط، ولو على نطاق صغير. ليس الحديث هنا عن المستقبل البعيد، بل عن القريب، بل والحاضر، عن كيف ومن أين سيدبّر المصريون بعد أشهر قليلة تكاليفَ الطعام والشراب والمواصلات والعلاج. والسلطة التي تبيع موارد المستقبل كلّها هي نفسها التي ترفع أسعار الخدمات والسلع، فتتضاءل الدخول أمام الغلاء المستمرّ والمتزايد. وبكل أسفٍ، فإنّ عوائد بيع مصر لا تعود على المصريين، لا في زيادة رواتب ولا في مخصّصات، ولا بتدشين صناعات أو مشروعات إنتاجية تدرّ أرباحاً، سواء بالعملة الأجنبية أو حتّى بالمحلّية. معنى ذلك أنّ أثمان ما يُباع تذهب إلى المجهول، ليواجه المصريون بدورهم مستقبلاً مجهولاً.

# عن أهداف الاغتيالات وسماتها في صفوف المقاومة

**عصام شعبان**

تشكّل عمليات الاغتيال (تاريخياً) أداةَ إضعافٍ لقوى المقاومة، تهدف إلى إرباكها والحدّ من قدراتها عسكرياً، وأيضاً النيْل من صورتها الرمزية ونفوذها، تنظيمياً وجماهيرياً. لم تقتصر الاغتيالات على مقاتلين، فطاولت كتّاباً وعلماءَ وشخصياتٍ عامّة كما غسّان كنفاني وماجد أبو شرار وناجي العلي، لأنّ من ضمن أهداف الاغتيالات أيضاً هزيمة أفكار المقاومة وشلّ فاعليتها الفكرية والسياسية، بما ينفيها فكرةً وخياراً، وإزاحتها من مساحات الجغرافيا والفضاء العام، كما تتزامن الاغتيالات مع تعميم الأفكار المناوئة لأشكال المقاومة كلّها، شعبياً وسياسياً وعسكرياً.

حضرت الاغتيالات مع محطّات المواجهة ومنها الانتفاضتان الأولى والثانية، وتتابعت مع جولات العدوان على غزّة. ومنذ 7 أكتوبر (2023)، هدّدت حكومة الاحتلال باستهداف المُنفّذين والمُخطّطين وداعميهم في كلّ مكان، معتبرةً مجموعاتِ المقاومة كلّها جبهةً واحدةً، لتصبح الاغتيالات أداةَ حربٍ رئيسةً تطاول قيادات الصفّين، الأوّل والثاني، لإحداث إرباك وفراغ في القيادة، وصولاً إلى مرحلة الإضعاف التام، وتمهيداً لإبعادها هدفاً مُعلَناً مع نزع سلاحها واحداً من شروط إنهاء العدوان على غزّة. وفي ساحة لبنان، مطلوب إبعاد حزب الله عن الجنوب خلف حدود نهر الليطاني، ونزع سلاحه أو تدميره، لتبقي المنطقة خاليةً، حتّى من قوات الأمم المتحدة (يونيفيل) التي تعرّضت لهجمات لتتراجع وتُخلي بعض مواقعها كما يُطالب الاحتلال. ويناشد نتنياهو اللبنانيين استثمار الفرصة والتخلّص من حزب الله.

وتجمع سياسة الاغتيالات أهدافاً تكتيكيةً؛ إعاقة المقاومة وتقليص وجودها، وأخرى استراتيجية؛ القضاء عليها. يتّضح ذلك من توجّهات حكومة الحرب، وهي تنتقل من هدف هزيمة حركة حماس إلى إضعاف مجموعات المقاومة كلّها، وفكّ ارتباط بعضها بإيران على أرضية مناوأة إسرائيل، وصولاً إلى نفي المقاومة فكرةً، ضمن إلغاء المسار التحرّري المقاوم سياسياً وشعبياً، وبدلاً من ذلك القبول بهيمنة الاحتلال على المنطقة، وإحلال مكوّنات تابعة له في غزّة على سبيل المثال، وربّما التخطيط لتغييرات سياسية في لبنان مشابهة، ترتكز على أنّ المقاومة استجابةٌ طبيعيةٌ تجاه المحتلّ غير ممكنة وكارثية، وأنّ التطبيع مع غير الطبيعي، وقبول إسرائيل قيادةً للشرق الأوسط، هما المساران الممكنان للسلام والتنمية. وتتكامل الاغتيالات مع القصف والنزوح والعقاب الجماعي ضمن توسيع دائرة العدوان، التي تمتدّ من غزّة إلى الضفّة الغربية إلى لبنان، ومن اليمن إلى سورية، وفرص توسّعها في العراق، بقصفٍ وعمليات اغتيال، مرشّحة للتصاعد، مع تهديد وتحريض مستمرّين من الاحتلال، الذي لا يواجه حركة حماس فحسب، بل جميع القوى المناوئة مهما كانت أيديولوجيتها. عملياً، طاولت الاغتيالات في لبنان قيادات من «حماس» ومن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وحركة فتح (تتواصل في الضفّة)، وسبّبت قتل العشرات من قيادات حزب الله الميدانية ومن مجلس شورى الحزب، وكان اغتيال أمينه العام، حسن نصر الله، دليلاً على رفض مسار الدبلوماسية وفشل جولاتها لوقف العدوان على لبنان، وهو اغتيال يُضاف إلى اغتيال إسماعيل هنيّة في طهران، ويحمل التوجّه نفسه من المفاوضات بشأن غزّة. ساهم حزب الله مع القوى الوطنية اللبنانية في تحرير معظم الجنوب المحتلّ في عام 2000، وأدار حرب تمّوز (2006)، وتتّهمه واشنطن بالإضرار بالمصالح الأميركية في المنطقة، وصنّفته الخارجية الأميركية في أكتوبر/ تشرين الأوّل 1997 منظّمةً إرهابيةً، كما سعت الحليفتان، تلّ أبيب وواشنطن، إلى الانتقام من بعض قياداته المُدرَجة ضمن قوائم الإرهاب، وتعمل الخزانة الأميركية على محاصرة مصادر تمويله وشبكاته الاقتصادية، كما رصد برنامج مكافآت العدالة (صرف 250 مليون منذ تأسيسه عام 1984) عشرات الملايين من الدولارات لمن يدلي بمعلومات عنهم. وبعد العدوان على غزّة، اغتيل فؤاد شكر، وأيضاً الرجل الثاني عسكرياً إبراهيم عقيل الذي تولّى مسؤولية وحدة الصواريخ الدقيقة، وكلاهما متّهمان بتفجير ثكنات أميركية في بيروت عام 1983، أسفرت عن قتل 241 جندياً وإصابة 128 آخرين، بجانب حادثة قتل 58 فرنسياً في هجوم مماثل. واغتيل عقيل المصنّف إرهابياً عالمياً مع قيادات من وحدة الرضوان. وكان اغتيال نائب رئيس حركة حماس، صالح العاروري، في الضاحية الجنوبية لبيروت، المحطّة الأولى في خطّة اغتيالات طاولت قيادات المقاومة في لبنان بعد العدوان على غزّة. ويمكن قراءة أهداف سلسلة الاغتيالات وسماتها في نقاط عدّة. فأولاً، إلى جانب الإنهاك وتقويض قدراتها على التواصل والتوجيه، تزرع الاغتيالات على المستوى النفسي الريبة والارتباك، ما يدفع المقاومةَ إلى التحرّك بحذر، ويساهم القضاء على قيادتها في الحدّ من فاعليتها، وتعطّل مسارها سنوات. كما تختلف الاغتيالات من حيث طبيعتها عن سياسة «جزّ العشب» المتّبعة سابقاً، فلم يعد الهدف وقائياً، أو استئصال قيادة بعينها من جسد التنظيم، بل نفيها والقضاء عليها، وهو ما استدعى نقل مسرح القتال وتوسيعه خارج غزّة بوتيرة متسارعة، واعتبار مواجهة حزب الله أولويةً رئيسةً، وأن تطاول الاغتيالات الصفوف الأولى والثانية. ومعها لم يعد استبدال المواقع الشاغرة سهلاً، ويبدو أحياناً مؤجّلاً، كما حالة حزب الله الذي ما زال يتشاور من أجل قيادة قد يُقضَى عليها فور إعلانها، كما جرى في تتابع الاغتيالات من أحمد ياسين إلى عبد العزيز الرنتيسي. وبجانب الانتقام، تمنح الاغتيالات الاحتلال الشعور بالسيطرة وسلب المقاومة التوازن، ما يصنع صورة النصر ميدانياً وسياسياً للعدو مدفوعةً بالقدرة المستمرّة على الهجوم المتتابع والصادم. ثانياً، تشمل سمات الاغتيالات جغرافياً، إلى جانب الأراضي الفلسطينية، مجموعات المقاومة بالتركيز على لبنان، وعمليات محدودة في سورية والعراق (تبدو تلك العمليات رمزية، لكن الانتقام والهجوم عليها مرشّحان للتوسّع)، وهؤلاء يجمعهم أولاً مناهضة إسرائيل، وثانياً خطّ التعاون مع إيران التي تعتبرها الولايات المتّحدة وإسرائيل هدفاً مشتركاً منذ سنوات. وتشير الدولتان إلى المواجهة الحتمية، كما تصنّف واشنطن قوى المقاومة ضمن منظّمات إرهابية، وتحرّض عليها دوائر السياسة الأميركية. وليس من قبيل المصادفة أن ينشر مركز أبحاث الكونغرس خلال سبتمبر/ أيلول الماضي ثلاث أوراق عن حزب الله تمهيداً وحشداً سياسياً خلف الهجوم الإسرائيلي، وضرب مواقعَ في الضاحية الجنوبية لبيروت بالطائرات، والاشتباك البرّي عند الحدود، وأن يخرج الرئيس الأميركي جو بايدن، معتبراً اغتيال نصر الله إقراراً للعدالة، في إشارة إلى اتهامات بقتل جنود وأفراد أميركيين وأوروبيين، غير مهتمّ بأنّ إسرائيل شنّت هجمات، سبّبت نزوح مليون ومائتي ألف داخلياً، غير نزوح إلى دولتي الجوار العراق وسورية. وفي مشهد الاغتيالات، تنتقل المواجهة الرمادية بين إيران وإسرائيل بضربات متبادلة، بعد مبادرة الاحتلال بالهجوم والاغتيال، مستخدماً أساليبَ الاستهداف جوّاً، نظراً إلى تفوّقه العسكري. ومع ذلك، يظلّ أسلوب الاشتباك المباشر وسيلةَ اغتيال مرشّحاً للتكرار، ويجري في الضفّة ضدّ مجموعات المقاومة، وسبق أن نُفّذ في دول عربية، مثل تونس والإمارات، ووارد أن يتكرّر في أماكن أخرى.

ثالثاً، خطّط الاحتلال لتنشيط سياسة الاغتيالات قبل 7 أكتوبر، وتناولت أصداء التوجّه وسائل إعلام عبرية منذ إبريل/ نيسان 2023، ونقلت القناة 12 العبرية تصريحات للوزير يسرائيل كاتس بشأنها. وخلال أغسطس/ آب 2023، شهدت بيروت تحرّكات دبلوماسية لتجنّب المواجهة، ونصحت دول عربية بنقل قيادات فلسطينية من لبنان، بحسب تقرير لصحيفة جيروزاليم بوست. كما هدّد بنيامين نتنياهو باغتيال قيادات من «حماس»، وقال صالح العاروري لقناة المنار، يوم 26 أغسطس/ آب الماضي، إنّ المقاومة مستعدّة لمواجهة شاملة لمخطّطات الاستيطان الساعية لإبعاد الفلسطينيين عن الضفّة، ولا تخشى التهديدات. بينما حذّر نصر الله من استهداف قيادات المقاومة، التي بدأت مع اغتيال العاروري وخمسة آخرين، ومعها فتحت إسرائيل مرحلةً جديدةً من الحرب. وقال نصر الله في خطاب بمناسبة الذكرى الرابعة لاغتيال قاسم سليماني إنّه في «حال العدوان على لبنان ستكون المواجهة من دون ضوابط». وإجمالاً، كان اغتيال العاروري الذي تعدّه إسرائيل أداةَ وصل مع إيران وحزب الله، العملية الأولى في مسلسل متّصل أسلوبَ تصفية. وردّاً على تنشيط مجموعات المقاومة في الضفّة الغربية بالتعاون مع حركة الجهاد الإسلامي، تلا ذلك اغتيال رئيس حركة حماس، إسماعيل هنيّة، في طهران، وكان إعلاناً أنّ مسار المفاوضات الدبلوماسية مُعلّق لصالح مواصلة الحرب وتوسيع نطاقها، بما في ذلك مواجهة شاملة مع حزب الله، تضمّنت اغتيالاتٍ متتابعةً، واتخذت طابعاً جماعياً في تفجير أجهزة «البيجر». بعدها جاء اغتيال حسن نصر الله بقنابلَ خارقةٍ للتحصينات (تزيد عن 80 طناً) لحظةَ مواجهة شاملة مع الحزب وحلفائه في الشرق الأوسط، ومحطّةً خسر فيها الحزب قيادةً ظلّت عقوداً في العمل السياسي تولّت مسئولياتها بعد اغتيال الأمين العام السابق، عبّاس الموسوي، عام 1992. حاولت إسرائيل اغتيال نصر الله (20 يوليو/ تمّوز 2006) بـ23 طناً من المتفجرات، بعد العدوان على غزّة في العملية المسمّاة «أمطار الصيف»، ردّاً على أسر الجندي جلعاد شاليط، حين نفّذ الحزب عمليةَ الوعد الصادق. وجاءت المحاولة الثانية مع دخول المقاومة اللبنانية جبهةَ إسنادٍ للقطاع منذ 8 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، واستهدفت أيضاً قيادات من الجبهة الشعبية وحركة فتح إلى جانب «حماس» هدفاً أساسياً في لبنان وسورية، مع الضغط على الحواضن الاجتماعية في لبنان كما جرى في غزّة. ضُربت مع قرى الجنوب الحدودية مناطقُ في البقاع والضاحية الجنوبية، وبعض المخيّمات الفلسطينية في لبنان. وفي سورية، استُهدِفَت مبانٍ تابعةٌ للمقاومة، غير أماكن تصنيع سلاح ومناطق حدودية. ونجا شقيق الرئيس السوري ماهر الأسد من محاولة اغتيال (؟)، وهي إشارة إلى بشّار الأسد بأن يبقى مع الصامتين. وتحمل الاغتيالات هنا رسالة ترهيب وتحذير إلى الفئات التي يمكن أن تراجع مواقفها، وهي تختلف نسبياً عن اغتيالات تستهدف شخصيات لها سمات قيادية مشتبكة فعلياً في خطّ مواجهة بشكل واضح، مثل رموز المقاومة سياسياً وعسكرياً، والذين لديهم القدرة على بناء صلات في داخل بلدانهم وخارجها (كما نصر الله وإسماعيل هنيّة وصالح العاروري) ويحملون خبرات سياسية (كما أعضاء المكاتب السياسية). هذا بجانب نوع ثالث من استهداف القيادات العسكرية التي تتمتع بقدرات على التنسيق والإدارة والتدريب والتخطيط، وهؤلاء جرى استهدافهم خلال العدوان أخيراً على غزّة ولبنان، وركّزت إسرائيل فيهم منذ الانتفاضة الثانية، تزامناً مع سعي المقاومة إلى التعاون وتبادل الخبرات لتطوير قدراتها، قياساً بما امتلكته سابقاً من أدوات بسيطة وتقليدية.

رابعاً، هناك مؤشّرات بأنّ سياسة الاغتيالات ستمتدّ خلال الحرب ضمن مواجهة لن تنتهي بتنفيذ أهداف الاحتلال من الحرب حالياً، وهي تخدم هدف الردع، وتتّصل بإضعاف المقاومة ونفيها وجوداً وفكراً ضمن تنفيذ استراتيجية إسرائيل في الهيمنة على المنطقة، وبإنهاء أيّ أفق للتحرّر الوطني، بما في ذلك بنىً فكرية ترتبط بأطراف الصراع، على أن يبقى خيار السلام والتطبيع تحت رايتها هو السبيل الوحيد لتجنّب الحرب، وهو توجّه تدعمه أغلب القوى السياسية، وسبق أن هاجم رئيس حزب إسرائيل بيتنا أفيغدور ليبرمان، نتنياهو خلال احتفال بمدينة بئر السبع (أغسطس/ آب 2023)، وطالب باتخاذ إجراءات «لاغتيال رؤساء حماس الذين يموّلون الإرهاب». وبعد اغتيالاتٍ طاولت حزب الله، قال كاتس، إنّ الاغتيال «جزء من الحرب». وداخلياً يلعب استهداف قيادات المقاومة السياسية والعسكرية دوراً في تعزيز الثقة بالجيش، وقدرته على الردع والانتقام، إلى جانب التنسيق مع جهازي الموساد والشاباك، ما يشيع صورةً للوحدة داخل بناء الدولة وخارجها، ويعيد خلال الحرب اللحمة التي كادت تتفسّخ لأسباب بينها تعديلات في نظام القضاء. وتُوظَّف الاغتيالاتُ (إلى جانب طابعها الانتقامي) في محو مشهد الصدمة مع عملية 7 أكتوبر، وتَنفي التراخي قبيل تهديد المقاومة بشنّ هجوم ردّاً على جرائم الاحتلال من توسّع الاستيطان والاقتحامات لقرى الضفّة ومدنها، وزيادة عدد الأسرى وسوء أوضاعهم في السجون، غير الحصار الممتدّ في صورة «العقاب الجماعي»، الذي تمارسه إسرائيل (وما زالت)، وتحاول الهيمنة على مجمل المنطقة بمخطّطات عن السلام أو بفرض خيار الحرب لمن لا يقبل قيادتها.

(كاتب مصري)

> تتزامن الاغتيالات الإسرائيلية مع تعميم الأفكار المناوئة لأشكال المقاومة كلّها، شعبياً وسياسياً وعسكرياً

> يعزّز استهداف قيادات المقاومة الثقة بجيش الاحتلال، ويشيع صورةً للوحدة تعيد اللحمة التي كادت تتفسَّخ في إسرائيل

# «الكدمول»... عن اللباس والحرب في السودان

**هدى الفاتح**

يسبّب اللثام الذي يرتديه مقاتلون مناصرون للجيش السوداني من أبناء الحركات المسلّحة، المنحدرة من إقليم دارفور (غرب)، بعض الارتباك، فهو يشبه اللثام الذي تظهر به قوات محمد حمدان دقلو (حميدتي)، عمامة كبيرة ملونة تغطي الرقبة كلّها وأغلب الوجه. يسمّى هذا اللثام في السودان (يصنع بأمتار كثيرة من الأقمشة الخاصّة) الكَدمول الذي ارتبط في الأذهان أخيراً بالمتمرّدين، إلى درجة أنّ ارتداءه صار يرمز للانحياز إلى مجموعات «الجنجويد» التي تقاتل الجيش. من أدلة هذا الارتباط قول بعض الداعمين للقوات المسلحة للسياسيين الذين يدافعون عن جرائم المليشيا المتمرّدة ممّن يدّعون الحياد: «لماذا لا ترتدون الكدمول؟»، أي لماذا لا تعلنون انتماءكم الصريح إلى المتمرّدين؟ من هنا وُلِد ذلك الارتباك الذي قصدناه، فوفق كثيرين يجب على المقاتلين في صفّ القوات المسلّحة ألّا يتشبّهوا بالمتمرّدين في لباسهم، خاصّة أنّ ذلك «الكدمول» أصبح رمزاً لهم. تقول وجهة النظر الأخرى، التي يتبنّاها أولئك المقاتلون الذين يرتدون الكدمول بفخر، إنّه يجب عدمُ الاستسلام لفكرة ربط ذلك اللباس بـ«الجنجويد»، الذين يمثّلون حالياً الشرَّ المطلقَ والتهديد الداهم لأغلب أهل السودان.

الحركات المسلّحة، التي شكلّت ما يعرف بـ«القوات المشتركة»، وينحدر مقاتلوها في غالبهم من قبيلة الزغاوة التي تتقاسم الجغرافيا مع قبائل الجنجويد، كانت خاضت مع تلك القبائل منذ بداية الألفية حروباً طويلةً قاسية. يرى أبناء هذه الحركات أنّ ارتداءهم «الكدمول» يمكنه أن يساهم في تغيير الصورة التي علقت بأذهان العامّة بشأن هذا الزي، حتّى يفهم من لم يكن لهم احتكاك سابق بهذه الثقافات، أنّ هذا المظهر الذي تتشاركه قبائل الصحراء، وصادف أن ظهرت به العصابات المتفلّتة، وهي تقتحم البيوت وتسرق وتنهب وتغتصب، بريءٌ ممّن ارتكبوا تحت غطائه أفظع الجرائم.

يراهن المتحمّسون لهذا اللباس كذلك على دور المشاهد المتداولة التي يظهر فيها أبناء تلك الحركات وهم يقاتلون بشجاعة، جنباً إلى جنب، مع الجيش النظامي، مرتدين هذا الزي القبائلي، في تخفيف العداء الذي ينظر به عامّة السودانيين إلى «الكدمول».

«الجنجويد»، الذين حرصت قياداتهم على الظهور بمظهر يجمع بين الزيّ العسكري وغطاء الرأس التقليدي هذا، مارسوا تضليلاً منذ البداية، من خلال تبنّيهم سرديةَ أبناء الهامش، خاصّة دارفور، الذين خرجوا من أجل البحث عن حقوقهم التي سُرِقت منهم بواسطة أهل الوسط والشمال.

كان يمكن لذلك الخطاب ضدّ أبناء الشريط النيلي، الذين احتكروا الثروات لأنفسهم، أن يكون مقنعاً، وأن يكسب بعض الأنصار. الذي حدث أنّ جنود حميدتي كانوا هم من قطع الطريق على من كان بالإمكان سحبهم إلى الاقتناع بذلك الخطاب، حينما عادوا إلى مهاجمة حواضن القبائل التي يرون أنّها معاديةٌ أو منافسةٌ لهم في أقاليم مختلفة، من بينها دارفور، الإقليم، الذي كان ينعم بفترة استقرار وهدوء نسبي قصيرة، وعاد ليشهد بيد «الجنجويد» مجازرَ مروّعةً وانتهاكات ترقى إلى وصف «الإبادة الجماعية». بدت مليشيا حميدتي بهذه الأفعال الوحشية التي لا تجد مبرّراً لها سوى العنصرية العمياء، أقرب إلى المجموعات الإرهابية، التي تدّعي الدفاع عن الإسلام، ويكون المسلمون، في الوقت ذاته، هم أكثر ضحاياها. ففي السودان كانت الهوامش التي تقول دعاية الحرب إنّ الغرض هو منحها حقوقها التي حرمت منها، هي من أهم ضحايا «الجنجويد» الذين يتّضح اليوم أنّهم استفادوا من أجواء الحرب في استعادة كفاحهم القديم، الهادف إلى تصفية وجود القبائل غير العربية عبر وضعهم أمام خيارين، الموت أو الرحيل.

لن تقبل مجموعاتٌ كثيرةٌ في دارفور، من بينها «الزغاوة» التي تلعب جماعاتها القبلية المسلّحة دوراً مهمّاً في مساندة الجيش ومنع تقدم المليشيا، أن يُترَك هذا الزي ليكون حِكراً على «الجنجويد»، تماماً كما أنّه لن يكون من المقبول عندهم، وبعكس ما يحدث اليوم بشكل عاطفي بتأثير الصراع الحالي، أن يُساءَ إلى مجمل التراث المحلّي من لهجات وأمثال وطرائق حياة، لمُجرَّد أنّ «الجنجويد» تبنّوها، وجعلوا منها تعبيراً عنهم. في المقابل، إصرارُ أبناء قبائل الجنجويد على التمسّك بهذا الزي محيّر، فنحن نذكر قبل هذه الحرب بوقت طويل، وفي خطاب لحميدتي، يوم أصبح قائداً لما يعرف بـ«الدعم السريع»، أنّه هو نفسه انتقد هذا اللثام، قائلاً إنّه قد يكون مفيداً في أجواء الصحراء، ولكنّه غير مناسب لقوات نظامية موجودة في داخل المدن. ذلك التمسّك، الذي يذكّر بتمسّك أبناء الطوارق بذلك الشال المشابه لـ«الكدمول» السوداني، زاد بعد اندلاع الحرب لأنّ «الجنجويد»، الذين كانوا يعتبرون أنّهم يخوضون حرباً ضدّ ما يطلقون عليه اسم «السودان القديم» أو «سودان 56» أرادوا أن يظهروا بشكل مغاير، وأن يمنحوا أنفسهم وسماً خاصاً. ارتداء «الكدمول» بهذا الشكل الكثيف كان في المقام الأول نكايةً في الجلّابية التقليدية، وفي العمامة، التي يرتديهما أغلب أهل السودان، وفرضتا نفسيهما زيّاً ورمزاً وطنياً.

لكلمة «الطوارق» معانٍ وتعريفاتٌ كثيرةٌ، ويمكن استخدامها للدلالة على القبائل العربية والأمازيغية التي تسكن منطقة الصحراء الأفريقية، وتمتد من غرب السودان إلى أقصى الغرب الأفريقي، بما يعرف أيضاً بـ«منطقة الساحل». هذه القبائل، التي يُحبّ أن يُطلق عليها بعضهم اسم «عرب الشتات»، تمتاز بالتشابه الكبير في مظهرها ولباسها، وبولائها الشديد بعضِها لبعض، كما تشترك في تبنّي العنف وسيلةً لتحقيق حلم تكوين وطن، إذ تعيش في بلدان مثل النيجر ومالي أقلّياتٍ. ذلك الإحساس يُفسِّر حالةَ التضامن «الساحلي» مع مشروع حميدتي، وسهولةَ جلب المقاتلين، الذين جاؤوا بعشرات الآلاف من دول مختلفة طمعاً في إنجاح مشروع أبناء عمومتهم في السودان، كما يُفسِّر لماذا كان التفريق بين «الجنجويد» المحلّيين وغيرهم من المرتزقة الوافدين صعباً، بسبب التشابه في السحنات واللهجة واللباس.

(كاتب سوداني في لندن)

> يُراهَن على مشاهد أبناء «القوات المشتركة» يقاتلون بشجاعة مرتدين «الكدمول»، في تخفيف عداء السودانيين له

> لن تقبل مجموعاتٌ في دارفور، من بينها «الزغاوة»، أن يُترَك «الكدمول» ليكون حِكراً على «الجنجويد»

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads